

سرّ خَلْق الملائكة؛ ضرورة فهم الفرق بين الإنسان والملائكة لمعرفة الذات

لماذا الإنسان أُسمى من المَلَك؟ قراءة علميّة في بيان الفرق بين الإنسان والملائكة
إذا سألنا أنفسنا يوماً: «ما الكائن الذي أنا عليه حقاً؟» فلن يكون أماننا مفرّ من سؤالٍ آخر ملازم له: «وما المَلَك إذن؟». هذان السؤالان، على خلاف ما يبدو في ظاهرهما، متشابكان تشابكاً عميقاً لا ينفصل أحدهما عن الآخر.
إنّ كثيراً من تصوّراتنا الخاطئة عن حقيقة الإنسان تنبع من افتراضٍ شائع، وهو اعتبار العقل ذروة الهوية الإنسانيّة، في حين أنّ العقل إنما يمثّل غاية نهائية لخلق الملائكة، لا غاية وجود الإنسان. ومن دون إدراكٍ دقيق للفرق الحقيقي بين الإنسان والملائكة، يستحيل علينا أن نفهم موقعنا الواقعي في هذا الوجود.
يسعى هذا المقال، بمنهجٍ تحليليّ قائمٍ على الأسس القرآنيّة، إلى إيضاح هذا الفرق الجوهرى، وبيان لماذا تبقى معرفة الإنسان بذاته معرفة ناقصة ما لم تُقرن بفهمٍ واعٍ لحقيقة وجود الملائكة وماهيّتهم.

ماهية وجود الملائكة؛ كائنات من سنخ العقل المحض

للدخول في صلب هذا البحث، لا بدّ أولاً من توضيح ماهيّة الملائكة على أساس مباني الفلسفة الإسلاميّة. فالملائكة كائنات مجردة عن المادّة؛ لا جسم لها، ولا وزن، ولا امتداد، ولا أيّ خصائص فيزيائيّة. إنّ حقيقتها من سنخ العقل المحض؛ أي تلك القوّة التي لا يوجد فيها أيّ أثر لـ«الوهم» أو «الخيال» أو «الميل» أو «الشهوة» أو «الغضب». وعقلانيّة المَلَك الخالصة ليست وصفاً مجازياً أو تشبيهيّاً، بل هي تعريف وجوديّ لحقيقته. ومن هنا، فإنّ البنية الداخليّة لوجود الملائكة تتكوّن من قوّة واحدة بسيطة؛ قوّة لا تُدرِك إلاّ الحقيقة، ولا تتحرّك إلاّ وفق ما تُدرِكه.

إنّ «جنس» كلّ موجود هو الذي يحدّد جميع أفعاله وسلوكيّاته؛ ولذلك، حين نقول إنّ جنس الملائكة هو العقل، فإنّنا نعني أنّ كلّ وظائفهم وتصرفاتهم ليست سوى تجلّيات لهذه القوّة الواحدة. هذه النقطة تُعدّ من ركائز أساسيّة في فهم الفرق بين الإنسان والمَلَك؛ إذ تكشف أنّ المَلَك ليس مركّباً من قوى ومراتب متعدّدة، ولا يعرف في داخله ساحة صراع أو تزاخم بين الدوافع والميول.

لماذا تتحلَّى الملائكة بالعصمة؟

إنَّ عصمة الملائكة ليست ثمرةً رياضيةً روحيةً، ولا نتيجة تربية مكتسبة، ولا حصيلة صراعٍ مع النفس؛ بل هي نابعة مباشرةً من بنيتهم الوجودية نفسها. ولتجلية هذه الحقيقة، لا بدّ من استعراض السلسلة العلية لعصمة الملائكة:

١. المَلَكُ منزّه عن المادّة

فالمادّة هي منبع التغيّر، والغفلة، والنسيان، والقصور. والكائن الذي لا مادّة له لا يعتره ضعفٌ إدراكيّ ولا يقع في خطأٍ معرفيّ.

٢. المَلَكُ منزّه عن الوهم والخيال

فكثير من أخطاء الإنسان تنشأ من تخيُّلات، ومخاوف وهمية، أو تصوّرات خاطئة. أمّا المَلَكُ فلا يمتلك هذه القوّة أصلاً، فلا يتصوّر خلاف الواقع ولا ينحرف إدراكه عن الحقيقة.

٣. المَلَكُ منزّه عن الشهوة والغضب

إذ تُعدّ الشهوة والغضب المصدرَ الرئيسيّ للتزاحم بين العقل والميول. وحين تنتفي هذه القوى، يبقى العقل المحض بلا أيّ قوّة مضادّة تنازعه أو تعارضه.

٤. للمَلَكُ طريقٌ واحد لا غير

فهو لا يرى إلّا الحقّ، ولا يفعل إلّا ما يقتضيه الحقّ؛ لأنّه لا يمتلك قوّة أخرى تمكّنه من اختيار الباطل أو الميل إلى غير الصواب.

وخلاصة هذه السلسلة أنّ المَلَكُ لا يمكنه أن يعصي؛ إذ إنّ «مخالفة الأمر» غير قابلة للتصوّر في حقّ موجودٍ لا يدرك إلّا أمرًا واحدًا، ولا يرى أمامه أيّ إمكانٍ آخر. ومن هنا، فإنّ عصمته ليست أمرًا عارضًا، بل ضرورةً وجوديةً. هذه الحقيقة تمثّل الركنَ الأوّل في فهم الفرق الجوهرية بين الإنسان والملائكة.

مكانة العقل؛ مرتبة المَلَك لا مرتبة الإنسان

إنَّ كثيرًا من أخطاء معرفيّة، ومن بينها سوء الفهم المتعلّق بهويّة الإنسان، تنبع من تصوّر خاطئ شائع، وهو اعتبار الإنسان «عقلًا» فحسب. فهذا التصوّر يُنزل الإنسان في مرتبة هي في حقيقتها مرتبة المَلَك، لا مرتبة الإنسان. فالعقل مرتبة شريفة، لكنّها محدودة؛ وهي مرتبة تتجسّد فيها حقيقة وجود الملائكة بأكملها، غير أنّها لا تمثّل في الإنسان سوى إحدى قواه.

في الكيان الإنساني، يقف العقل إلى جانب قوى ومراتب أخرى: الحسّ، والخيال، والوهم، وما وراء العقل. هذا التنوّع في القوى هو الذي يُنشئ الساحة الداخليّة للتزاحم والاختيار؛ وهي ساحة لا وجود لها عند الملائكة. ومن هنا، وكما يتّضح الفرق بين الإنسان والملائكة من حيث البنية الوجوديّة، يتجلّى كذلك الفرق من حيث السعة والقدرة؛ فالإنسان ليس مركّبًا من العقل وحده، بل إنه يوظّف العقل تحت سيادة اختياره. وحين يعرف الإنسان ذاته بأنّه «عقل» فقط، فإنّه يُنزل نفسه إلى مرتبة الملائكة، مع أنّ الله تعالى خلقه كائنًا ذا ساحتين: يمتلك قوى وميولًا متعدّدة، وفي الوقت ذاته يتمتّع بقابليّة الصعود إلى مرتبة تتجاوز حتى مرتبة العقل المحض.

ما وراء العقل؛ السّعة الخاصّة بالإنسان للصعود

إنّ ما يميّز الإنسان عن المَلَك لا يقتصر على امتلاكه للاختيار أو ساحة الانتقاء فحسب؛ بل يتجلّى في وجود قابليّة فريدة عبّرت عنها الفلسفة الشيعيّة بمصطلح «ما وراء العقل».

ما وراء العقل ليس في مواجهة العقل ولا بديلًا عنه، بل هو مرتبة أُسمى من الإدراك والشهود والاتصال، يعجز العقل بمفرده عن بلوغها. وقد جسّد الأنبياء وأولياء الله أسمى صور تحقّق هذه القابليّة؛ إذ إنّه، بتجاوزهم مرحلة العقل وتفعل ما وراء العقل في وجودهم، بلغوا مقامات لا سبيل للملائكة إلى الوصول إليها.

هنا يتّخذ الفرق بين الإنسان والملائكة بُعدًا وجوديًا عميقًا؛ فأسمى غاية خِلق الملائكة هو العقل، ولا يمكنهم أبدًا تجاوز هذا الأفق. أمّا الإنسان، فإذا أحسن توجيه قواه وميوله الداخليّة في المسار الصحيح، استطاع أن يتخطّى العقل ويدخل إلى حريم مقام أُسمى، هو المقام الذي يُعبّر عنه بـ«الخلافة الإلهيّة».

الملائكة في خدمة الإنسان؛ شبكة التدبير الإلهي لتربية الإنسان

لقد تحدّث القرآن الكريم مرارًا عن دور الملائكة في تدبير شؤون العالم. فالملائكة هم المنقذون لأمر الله في جميع ساحات الوجود: من نزول المطر وإنبات النبات، إلى قبض الأرواح وإنزال الوحي. وهذا الاتّساع في المهام يكشف أنّ الملائكة ليسوا مجرد كائناتٍ روحانيّة منزوية، بل هم أعمدة تنفيذيّة وإداريّة في نظام الخلق.

غير أنّ النقطة الجوهرية تكمن في أنّ جميع هذه التدابير تنتهي، في محصلتها النهائيّة، إلى الإنسان. فجميع مهامّ الملائكة موجّهة في النهاية لتهيئة أرضيّة نموّ الإنسان وكماله. وهذه الحقيقة، التي أشارت إليها آياتٌ عديدة، تبيّن أنّ الفرق بين الإنسان والملائكة لا يقتصر على بنيتهم الوجوديّة فحسب، بل يمتدّ إلى غاية الخلق نفسها؛ حيث إنّ الإنسان هو محور الخليقة، والملائكة فرعٌ تابعٌ لوجوده.

فالإنسان هو خليفة الله، والملائكة - على حدّ تعبير الحكماء - هم «مدبّراتُ أمرِ الخليفة». ويُعيد هذا المقام التأكيد مرّةً أخرى على ضرورة معرفة الملائكة في مسار معرفة النفس؛ إذ ما لم ندرك حقيقة الملائكة ودورهم، لن نستطيع أن نعي عظمة الطاقات الكامنة في الوجود الإنساني.

الفرق بين الإنسان والملائكة؛ مفتاح فهم الهوية الإنسانيّة

والآن بات بالإمكان تقديم صورةٍ أكثر اكتمالاً عن الفرق بين هذين الكائنين. فمن حيث البنية الوجوديّة، المَلَك عقلٌ محض، أمّا الإنسان فكائنٌ مرّكب. ومن حيث القوى الداخليّة، يخلو المَلَك من القوى والميول المتعارضة، بينما يعيش الإنسان في ساحة تزاخم وصراع. ومن حيث الاختيار، يُسيّر المَلَك في طريق الحقّ بالضرورة، في حين يُمنح الإنسان حرّيّة الاختيار. أمّا من حيث القابليّة والاستعداد، فللمَلَك سقفٌ محدود، وللإنسان أفقٌ لا حدّ له.

في هذا الإطار، لا يُعدّ الحديث عن الفرق بين الإنسان والملائكة مسألةً جانبيّة، بل هو أصلٌ محوريّ في فهم الذات الإنسانيّة. فإذا عرّف الإنسان نفسه في حدود العقل المحض، فإنّه يتغافل عن قابليّته لما وراء العقل،

ويُفَرِّط في الخلافة الإلهية. وإذا ظنَّ أنّ طهارة الملائكة ثمرةً مجاهدةٍ وسعي، فإنّه يضلّ طريق الفهم في مسار الكمال؛ إذ إنّ طهارة الملائكة ذاتية، بينما صعود الإنسان اختياريّ. إنّ الفهم الصحيح للفرق بين الإنسان والملائكة يفضي إلى إدراك حقيقة عميقة، وهي أنّه وإن كانت الملائكة معصومين، فإنّ عصمتهم غير اختياريّة، بينما يستطيع الإنسان أن يبلغ مرتبةً تكون فيها عصمته الاختياريّة أسمى قيمةً وأعظم شأنًا من العصمة الذاتية للملائكة.

معرفة النفس من دون معرفة الملائكة معرفة ناقصة

لا يُعرَف الإنسان حقّ المعرفة بمجرد التأمل في أعماقه الداخليّة؛ بل لا بدّ له أن يكتشف موقعه ضمن سائر مراتب الوجود. فالملائكة يمثّلون الصورة الكاملة للعقل، في حين يمثّل الإنسان الصورة الكاملة للإرادة والاختيار. وبهذين البعدين المتكاملين تنكشف هندسة الخلق ومعماريتته الكبرى. وما لم يُفهم الفارق بين الإنسان والملائكة، فلن يُفهم على وجه الدقّة معنى العلاقة بين العقل، وما وراء العقل، والاختيار، ومسار الصعود، ولا دور الملائكة في عالم الأمر.

إنّ معرفة الملائكة تكشف عن حقيقة جوهريّة:
نحن لسنا ملائكة، ولم نُخلَق لنكون كذلك. نحن كائناتٌ أودعت فيها قابليّة صعودٍ تتجاوز قابليّة الملائكة أنفسهم. ومن هنا، كلّما عرّف الإنسان نفسه بأنّه «عقل» فحسب، كان قد أنكر نصف حقيقته، وكلّما وضع نفسه في مسار ما فوق العقل، كان يسلك الطريق الذي فتحه الله للإنسان وحده دون سواه.